الفلاحة الفرعونية

الحرث والبذر

للدكتور حسن كمال
وكيل القومسيون الطبي

﴿ تقسيم الاراضي ﴾ يبدأ الفلاح بعد زوال الفيضان في تنقية حقله من الاعشاب والاحجار المتخلفة عادة من الفيضان السيلي . وكثيراً ما يوسم الفلاح منذ اقدم الأسر قائماً بهذا العمل الجليل الشاق كمقدمة لزراعة الارض . والمعروف ان هذه العناية كانت محصورة بادىء ذي بدء في مساحات تكفي سكان القطر فقط . لكن لما زاد تعداد هؤلاء وبلغ السبعة ملايين نسمة ثم زادت ايضاً صادرات القمح المصري الى بلدان البحر الابيض المتوسط تحتم على اهالي القطر الانتفاع بكل بقعة في وادي النيل تحقيقاً لهاتين الغايتين الهامتين . وهذا هو سر استثمال الغابات في القطر المصري

وقد اخبرنا ميتن (Meten) من عهد الاسرة الثالثة [1] انهُ حوّل جميع اراضي والده الى ارض زراعية . والباحث في الآثار يجد ان عملية تطهير الاراضي من الاعشاب وخلافها استمرت حتى عهد الاسرة الثانية عشرة كما يشاهد ذلك في تقوس زاوية المتين التي اوردها لبسيوس (دنكمار ج ٢ لوحة ١٠٨ — ١٢٦) . واستعمل الفلاح في هذه العملية البلطة واستعان على ابادة الاعشاب بالفهم

وتشاهد النباتات المائية مرسومة بوضوح في بعض مقابر طيبة فمقبرة (نخت) تمثل نهر النيل والاعشاب نامية على شاطئيه والفلاح المصري يقتلعها بالفأس . قال هيرودوتس (ج ٢ — ١٤) وديودورس (ج ١ — ٣٦) ان الفلاح بعد ما يستأصل الاعشاب والنباتات البرية من ارضه يعمد الى تسميدها باطلاق الخنازير فيها . لكن هذا القول قوبل بالنقد الشديد من الاثريين خصوصاً اذا لاحظنا ان مصاطب المملكة القديمة لم تحو رسوماً لهذه العملية للآن . لكن يوجد في مقبرة بطيبة (نب امون Rec. de trav. lix pl. 98) منظر لقطيع من الخنازير يسبق فلاحاً يقلب الارض بفأسه

﴿ طريقة استعمال الفأس ﴾ سبق ان ألمعنا في مقال آخر الى طريقة استعمال الفأس في العهد السابق لعهد الفراعنة واوردنا رسماً لذلك . ثم تكلمنا في التحسينات التي ادخلت على هذه الآلة العظيمة التي تعتبر بحق رمز مصر والتي حافظت على وجودها مدى التاريخ . واكثر استعمال هذه الآلة كان في الاحوال التي تتطلب تسليق الارض بدقة دائمة . لذلك كثيراً ما نجد رسوم الفلاحين على الآثار تمثلهم قابضين على الفؤوس الواحد تلو الآخر قائمين بعملية الحفر المطلوبة . وذلك

(1) Meyer II. transl. Moret p. 216.

في عهدي المملكة القديمة والامبراطورية . وكثيراً ما يكتب اعلام عبارة معناها « انزل يدك » — اي احفر بالفأس (مقبرة في سقارة) وقد اورد ماريت في كتابه عن المصاطب (ص ٣٤٦) رسماً لامرأة تحفر الارض بنشاط وشجاعة

وفي مقبرة (تي) المذكورة حفر الحفار منظراً لثلاثة رجال يستعملون الفأس في حفر الارض بهمة وفوقهم نقشت النشودة كانوا ينشدونها وقت قيامهم بهذا العمل الشاق اليك ترجمتها : « الحفار في المياه وسط الاسماك يناجي سمك الصلور ويتبادل التحية مع سمك العبيدي — ايها الغراب ان حفارك هو حفار الغراب[1] » . والتمثال الصغير الذي عثر عليه جهة مير يفسّر هذه الانشودة اوضح تمثيل . لانهُ يمثل الفلاح يحفر الارض بفأس باخلاص بيّن كما يستدل من غور قدميه في الطين حتى كعبيه ولما كان وقت الحفر بالفؤوس هو في اليوم التالي لزوال الفيضان كان السمك حينذاك يغدو ويروح حول القائمين بهذه العملية على ما يدلُّ نصُّ الانشودة

﴿ استعمال المحراث ﴾ يشاهد استعمال المحراث في فلاحة الاراضي بنسبة تفوق كثيراً استعمال الفأس وذلك منذ عهد الاسر الاولى ، ومنه يستدل على ان الاراضي كانت تزرع بانتظام منذ تلك العصور . وصغار الفلاحين الذين كانوا لا يمتلكون بهائم لجرّ المحاريث كانوا يقومون بذاتهم بهذه العملية (مقبرة باحرى) والعادة ان المحراث كان يجرّ بثورين او ببقرتين وذلك بواسطة نافٍ مستعرض مثبت في قواعد القرون بوثاق قوي . لكن هناك مقبرة بمنف تمثل النافَ مثبتاً في اعناق الثيران[2] . وهناك عدة قراطيس ردية تحوي رسوماً تمثل تثبيت النافَ في الاعناق . واورد پريس Prisse[3] رسماً لمحراث يجره جواداد . وهناك مقبرة ببني حسن (لبسيوس ودنكمار ٢ — ١٢٧) تحوي نقوشاً يستدل منها على ان ثيران صاحب المقبرة كانت مدربة احسن تدريب حتى انها كانت تقوم بعملية الحرث بمجرد ربطها في المحراث واعطائها الاشارة للبدء بالعمل . والعادة ان هذه البهائم كانت لا تحتاج الى ارشاد وقت الحرث الا ساعة ادارة الآلة وتغيير خطة السير . وبديهي ان محاريث هؤلاء القوم كانت لا تشق الا الطبقة السطحية للحقول كما يستدل من طبيعة محاريث تلك الازمنة وكما هو وارد ايضاً في رواية ديوسقوريدس (جزء ١ — ٣٦)

والباحث في صور المحراث الواردة على الآثار يجد ان هذه العملية تمثل برسم محراثين او ثلاثة محاريث الواحد خلف الآخر . والقصد من رسمها بهذه الصورة هو ايضاح طريقة استعمال عدة محاريث على حذاء واحد وفي بقعة واحدة . لكن رسام تلك الصور عسر عليه رسمها رسماً مجسماً فاضطر ان يوضح مراده برسم المحاريث بعضها فوق بعض. وهناك احتمال آخر في تفسير تعدد المحاريث في مناظر حرث الاراضي يتلخص في ان الارض التي كانت تزرع كتاناً او فولاً كانت تحرث مرتين او

(1) Maspero Etude egyptienne t. II p. 74 trad. (2) Descrip. de l'egypte. Ant. V. p. 17
(3) Mon. Egypt. pl. 35

تلاثاً قبل زرعها قمحاً . وهـذه العادة اتبعها اليونانيون في فلاحتهم [1] . فهل كان الحراث يقصد بتعدد رسم المحراث اثبات براعة حرث الارض ؟ هذا السؤال تصعب الاجابة عنهُ اجابة قاطعة

ويلاحظ في بعض المقابر مثل مقبرة (ثحت) بالاقصر ان الرسام اوضح طريقة تجزئة الاراضي الى حقول متعددة بالطريقة التي كانت متبعة في عهده . فهناك ترى حقلين تفصلهما شجرة صغيرة كما تشاهد ايضاً المحراث الذي يستعمل في حراثة احد الحقلين مقابلاً لمحراث ثان لحراثة الحقل المجاور والبقرتان الجارتان لكل محراث تتقابلان مع بقرتي المحراث الآخر عند الحدّ الفاصل للحقلين . ويضطر الفريقان بحكم تقابلهما من تولية ظهورهما بعضهما لبعض والرجوع بالتالي الى الجهة المضادة

والمحراث المصري القديم (وهو لا يزال مستعملاً الى الآن) يتطلب عناية كبيرة من الفلاح فعلى هـذا الاخير قبل استعمال المحراث ان يضغط عليهِ بكل قواه ليرسل حدهُ في التربة الى أبعد مدى ممكن وان يستمر في ضغطه هذا طول مدة الحرث متكئاً على زاوية المحراث بيديهِ حانياً ظهره طول الوقت . وقد يقوم فلاح واحد بهذه العملية . لكن الغالب ان فلاحين يقومان بهذا العمل احدهما يضغط على المحراث وآخر يسوق البقرة من الامام او الجنب بحسبما تقتضي الاحوال (مقبرة تي) وثمة في مقبرة (بلحرى) انشودة كان الفلاحون ينشدونها وقت الحرث ترجمتها : « انهُ ليوم بديع ! ويوم سعيد . فالثيران تجر المحاريث . والجو باق على مرامها ، ونحن نؤدي واجبنا نحو سيدنا ! »

وبعد الفراغ من الحرث يبدأ الفلاح في تكسير الكتل الطينية الناتجة من المحراث . فيعمد بالفاس او المعى الغليظة او القادوم فيفتت هذه الكتل الى قطع صغيرة ممهداً بذلك الحقل لعملية البذر ومسهلا في الوقت نفسه طريقة الري

﴿ السماد ﴾ معلوم ان مياه الفيضان تحمل مقداراً كبيراً من الغرين الذي هو سماد طبيعي . قال بلينيوس (١٩ — ٥) ان قدماء المصريين كانوا يوزعون على اراضي حقولهم مادة آزوتية بقصد التسميد للنباتات المتأخرة النضوج . وروى الاستاذ ولكنسون في كتابه عن عادات المصريين (جزء ٢ — ٣٩٥) انهم كانوا يضيفون الرمال لتلطيف تربة بعض الحقول وجعلها صالحة لنمو بعض النباتات كالعنب

﴿ طريقة البذر ﴾ وبعد الفراغ من عملية الحرث يبدأ الفلاح في بذر حبوبه ثم تغطيتها بالتراب قال هيرودوتوس (جزء ٢ — ١٤) ان الأراضي التي كانت تغمرها المياه معظم السنة كانت تبذر فيها الحبوب حال زوال الفيضان منها بدون حرث على الاطلاق بشرط ان تكون هذه الاراضي قد سبق زرعها . وليس هذا بمستبعد لان تحس مصر المحرفة وخصوصاً في صعيدها تجفف الارض بعد زوال الفيضان عنها في مدة لا تتجاوز عدة ساعات

أما الاراضي التي تحرث حرثاً اصولياً بقصد زراعتها قمحاً مثلاً فان الفلاح كان يتتبع ساعتئذ سلاح المحراث واضعاً الحبوب في مجراه كما هو واضح في قصة الاخوين من أن « الارض حالما تخلصت من مياه

(1) Iliade XVIII, 547.

النيصان اخذ الاخ الاكبر قيادة الحراث وكلف اخاه الاصغر الاسراع في الحضور الى الحقل مصحوباً بالحبوب لبذرها » . وتشير هذه القصة ايضاً الى طريقة توزيع اعمال الفلاحة بين افراد العائلة والى الاقتصاد في الحبوب وقت البذر حيث ورد فيها ان الكمية الاولى من الحبوب نفدت فأرسل الاخ الاكبر أخاه الاصغر مرة ثانية الى مخزن الحبوب حيث وجد زوجة أخيه فناداها قائلاً « هيا اسرعي واعطيني الحبوب لأن أخي طلب مني الاسراع في ذلك وقال لي لا تكن كسولاً » فاعتذرت اليه السيدة وقالت « يتعذّر عليّ القيام الآن لأني امشط شعري واخشى ان يتلبك قبل الفراغ منه . فاذهب انت وخذ البذور المطلوبة» . فدخل الصبي الاهراء وملأ زلعة كبيرة من الحبوب لانه كان في نيّته ذلك . وكانت الحبوب قمحاً وشعيراً . وحملها على كتفه . فلما همّ بالخروج بادرته زوجة اخيه سائلة — ما هي كمية الحبوب التي تحملها على كتفك ؟ — فاجابها — ثلاثة مكاييل من الشعير وخمسة مكاييل من القمح فيكون الكل خمسة مكاييل . هذا هو ما أحمله على كتفي » — (راجع قرطاس اوربيني لوحة ٢ — ٩ ، لوحة ٣ سطر ٥) . ومنه يستدل على شدة حرص السيدة في معرفة الكميات المأخوذة من الشونة محافظة على المقادير اللازمة للمنزل

ودلتنا النقوش البارزة بمقابر سراة القوم وكبار الموظفين ان الحكومة كانت تحافظ جدّاً على عدم التبذير في الحبوب ومحصولات الاراضي . لأن مرتبات العمال والموظفين كانت تدفع شعيراً او قمحاً وجرت العادة على ان الاهالي كانوا يستدينون بعضهم من بعض ما تتعادل قيمته مع مقادير معينة من الحبوب لان الحبوب وتتذبذر اصبح لها قيمة مالية تضارع قيمة النقود في عصرنا هذا [1] وكانت هناك طائفة كبيرة من الكتّاب تقوم بتسجيل الصادر والوارد في شون الحكومة من الحبوب . واعتاد الرؤساء ان يرسلوا مفتشين لجرد محتويات هذه الشون وذلك لكيل محتوياتها وتسجيلها في سجل خاص تحت اشراف كاتبين . يقوم احدهما بمراقبة عملية الكيل ويقوم الآخر بقيد مقاديرها (راجع مقبرة الشيخ سعيد للاستاذ ديفيز ص ١٩٠ ومقبرة اورارنا لوحة ١٦) . واورد ليسيوس في (الدنكماير ج٢ لوحة ٥٦ مقبرة نوفر بيوبتاح) نقوشاً يستدلّ منها على طريقة اخذ الحبوب من الشون بواسطة الفلاحين القائمين بعملية البذر . ومنها يتضح ان هؤلاء كانوا يملأون اكياسهم حبوباً من فتحة الشونة السفلى ويحملونها على اكتافهم تحت اشراف كتبة يقومون بعملية القيد لكل صغيرة وكبيرة . وجاء في عدة قراطيس بردية من العهد الصاوي (٦٦٠ — ٥٢٥ ق . م .) ما يشير الى ان بعض فلاحي ذلك العصر كانوا يقترضون كميات التقاوي اللازمة لهم من متيسريهم على ان يردوها من محصول الارض عند الحصاد

وقد حافظ كيس التقاوي على شكله من عهد الاسرة الاولى (٣٤٠٠ — ق.م)[2] . وكان هذا

(1) Revue egyptologique 1813 3o année, Revillont, Les prêts de blé p 25.

(2) Wilkinson, Manners etc. Vol. II p. 369

الكيس يصنع من الصفصاف (water-willow) ويحمل عادةً فوق الكتف اليسرى ويقف حاملهجوار الحرائين او الحفارين . فاذا ما بدأ الاخيرون عملهم تبعهم الشخص القائم بعملية البذر قابضاً على الكيس بيده اليسرى ومالئاً قبضته التي حبوباً ليبذرها في الشقوق المتخلفة من الفؤوس اوالمحاريث (مقبرة تي لوحة ٣)

وجاء في ميدوم رسمٌ لفلاح يقوم ببذر الحبوب مزين بأوراق النبات وحامل لكيس مربع الشكل تقريباً له يد مجدولة مثبتة بمنطقة الكتفين ومرسل الى خلف الابط الايمن . ويعتبر هذا الرسم الوحيد من نوعه على الآثار للآن

وجاء بمقبرة (باحرى) رسم لعملية البذر يتلخص في شخص تابع لحفّار او حرّاث يبذر الحبوب على طول باعه . ولما كانت العادة عند القوم وقتئذٍ اذا ارادوا ان ينقشوا عملية البذر على مقابرهم ان يرسموا الرجل القائم بهذا العمل ثانياً ذراعه . لذلك استنتج بعضهم ان الحبوب المقصود بذرها بمقبرة (باحرى) المذكورة هي غير حبوب القمح وانها لا يبعد ان تكون حبوب الكتان (راجع كذلك مقبرة (نخت) لديفيز لوحة ١٨)

واهتمّ رسامون كثيراً بتلوين مناظر البذر اهتماماً فاق اهتمام الحفارين في نقش هذه العملية[1]

﴿ تغطية الحبوب ﴾ ولما كانت احوال القطر الطبيعية تحتم على الفلاحين تغطية حبوبهم بعد بذرها منعاً لتعرض احد جانبيها للارض الرطبة والآخر لاشعة الشمس المحرقة ومحافظة عليها من الطيور والحشرات كما يستدل على ذلك من النص الوارد ببرطاس انسطاسي (٥ لوحة ١٥) من « ان الفرانات تأكل اعشاب الحديقة . والحيوانات الاخرى تأتي على بقية الزراعة » . وتعمل التغطية في الارض الرطبة بجذع نخلة يجره ثوران لكن في مقابر المملكة القديمة (في لوحة ٣) كانت هذه العملية تؤدّى بسوق الغنم او الخنازير التي تغرز الحبوب في الوحل مغطيّة اياها في الوقت نفسه . وكان الفلاح يشجع احياناً هذه الحيوانات على هذا العمل بترغيبها بحفنة حبوب في يده وطوراً يرغمها على ذلك بالعصى والسياط (في لوحة ٣ — الشيخ سعيد لوحة ٨) . وقد نسب هيرودوتس هذه الطريقة الى اهالي الوجه البحري (٢ — ٢٦)

اما عملية تغطية التقاوي في الارض الصلبة فكانت تؤدّى بتكرار الحرث (باحرى) كما يستدل ايضاً من نقوش واردة فوق محراث بمقبرة بالجيزة ترجمتها: «اضغط على المحراث لتغرز الحبوب في الارض» (دنكابلز ٢ — ٥١) . وفي عهد الاسرة الثامنة عشرة انتشرت هذه الطريقة بين القوم فكانوا يحرّرون حدّ المحراث على الزيشة القائمة بين كل شقين فيشطرها السلاح شطرين يغطي كل منهما الحبوب في الشق المجاور . ووردت على الآثار رسوم تبين استخدام العبيد في جرّ المحاريث للقيام بهذه العملية (باحرى)